نظريــة الانعكــاس في الأدب

نصيرة الونّاس*

الملخص:

لقد تعددت زوايا النظر إلى النص الأدبي في النقد الحـديث والـتي تلخصـت في أربع زوايا : زاوية الفرد، زاويـة المجتمـع ، زاويـة الـنص ، وزاويـة القـراءة . ومـا يعنينا في بحثنا الموسـوم نظريـة الانعكـاس في الأدب هـو تخصـيص الكـلام عـن زاوية النظر الثانية؛ أي زاوية المجتمع التي نشـأت عنهـا نظريـة الانعكـاس ، القائمـة على أساس أن العمل الأدبي ليس وليد عوامل فردية، وإنما وليد عوامل اجتماعيـة ، وهو صورة لهذه العوامل على نحو أو آخر على الرغم من أن وراء كـل عمـل فنّـي فرد إلا أنه يستمدّ مادته من مصدر اجتماعي. لقد أنتجت لنا هذه الزاويـة عـددا مـن الدراسات النقدية و ضمن هذه الدراسات نجد مجموعة من المنـاهج تحـاول بحـث النص على أنه واقعة اجتماعية ، وإذا حاولنا تصـنيف كـل مـا أنـتج في هـذا الإطـار نجدها تدخل ضمن اتجاه عام نسمّيه بالاتجاه الاجتماعي الـذي يرتكـز علـى علـم الاجتماع والفلسفة الماركسية.

إذا كان الأدب انعكاس للواقـع الاجتمـاعي الـذي أنتجـه ، وإذا كانـت صـورة الأدب تتغيّر بتغيّر صورة المجتمع، فإنّ الرؤية الاجتماعية للأدب تفـرض تغيّـرا في المفاهيم الأدبية كمفهوم الإبداع الأدبي الذي غدا فعالية اجتماعية، والأديـب باعتبـاره كائن طبقي أو مجموعة من العلاقات الاجتماعيـة ، والقـارئ الـذي يظهـر دوره في تشكيل الأعمال الأدبية وتوجيهها ، أما عن وظيفة الأدب فهـي اجتماعيـة صـرفة؛ إذ تدفع بالقارئ إلى إدراك واقعه والمساهمة في تغييره مما يطرح مسألة الالتزام. لقد تطورت الأبحـاث في مجـال الاتجـاه الاجتمـاعي أي في مجـال نظريـة الانعكـاس ليظهر النقد السوسيولوجي ، كما ظهرت البنيوية التكوينية

Abstract :

The visions of literary text differ according to modern criticism, we can divide them into : the individual vision,i.e,the social vision,the textual vision and the reading vision. In this paper,we will deal with the second vision. The social vision one which has yielded the theory of reflexivity based on the rule that the

* كلية الأدب واللغات ، جامعة آكلي محند أو لحاج ـ بالبويرة ـ

literary work is not a result of personal factors but it is the result of personal factors but it is the result of social factors.

This vision has yielded some surveys in criticism including several methods attempting to study the text as a social fact,If we try to classify what has been produced, this vision complies with a general orientation known as the social orientation which, itself, is based on sociology and markcist philosophy.

If literature reflects the social situation that has produced it, and if that social vision of literature imposes a change in literary concepts such as : the concept of literary creativity, the writer, the reader and the function of literature.

Research have made progress in social orientation, i.e, in the vision of reflexivity.

مقدّمة :

لقد تعدّدت زوايا النظر إلى النصّ الأدبيّ في النّقد الحديث والتي تلخّصت في : زاوية الفرد ، المجتمع ، النصّ ، وزاوية القراءة ، غير أنّنا سنخصّص حديثنا عن زاوية النّظر الثانية التي نشأت عنها نظرية الانعكاس القائمة على أساس أنّ العمل الأدبيّ وليد عوامل اجتماعية. وقد أنتجت لنا هذه الزاوية عددا من الدّراسات النّقدية ، التي نجد ضمنها مجموعة من المناهج حاولت البحث في النصّ على أنّه واقعة اجتماعية. وإذا حاولنا تصنيف كل ما أنتج في هذا الإطار نجدها تدخل ضمن اتّجاه عام نسمّيه بالاتجاه الاجتماعي الذي يرتكز على علم الاجتماع والفلسفة الماركسية .

إنّ تحليل الأثر الأدبيّ بخصائصه المعقدة على أنه انعكاس للواقع الاجتماعي ببنياته المختلفة يطرح جملة من الإشكاليات حول طبيعة هذه العلاقة بين الأدب والمجتمع وحدود التأثير. وسنحاول من خلال هذه الدراسة تحديد طبيعة تلك العلاقة الرابطة بين الأدب والمجتمع.

الإرهاصات الأولى للبعد الاجتماعي في الإنتاج الأدبي

هناك مقولة لطالما نجدها مرددة عن طبيعة الإنسان فقد قيل إنه اجتماعي بطبعه ، وإنّه ابن بيئته وانعكاس لتفاعلاتها المختلفة ، إنّ النظر إلى العمل الأدبي على أنه يعكس الواقع الاجتماعي ليس حديثا ولكنه قديم يعود إلى عهد أفلاطون وأرسطو وإلى العصور التاريخية القديمة. ولكن هؤلاء حاولوا تبرير وجود الأدب وليس دراسة انعكاس الواقع في الأدب .

وقد نظرت العرب إلى الشعر على أنّه ديوان العرب ، ولا شك أنّ الإسلام كان له موقف صارم من الشعر والشعراء نظرا لإدراكه للبعد الاجتماعي للشعر ومكانته ، وإذا تفحصنا الكتب الأدبية والنقدية القديمة فإنها لا تخلو من إشارات

جمّة تربط بين الشاعر وقبيلته. ومن المحاولات المتقدمة التي سعت للربط بين الأدب والواقع الاجتماعي محاولات المفكر الإيطالي جيامبا تيستا فيكو(1669 ـ 1744) في كتابه « مبادئ العلم الجديد» إنه ربط بين الأنواع الأدبية والواقع الاجتماعي ، وعليه فقد ربط ملاحم هوميروس بالمجتمعات العشائرية ، وقال بأنّ الدراما نشأت مع ظهور المدينة ، أما الرواية فقد ظهرت مع ظهور المطبعة والورق وانتشار التعليم [1] ، معتدّا في ذلك بعنصر الزمن.

لطالما وعى النقاد ضرورة البعد الاجتماعي للأدب ومنحوه قيمة في تحليلاتهم النقدية ، غير أنّهم لم يصلوا إلى بلورة نظرية نقدية متكاملة إلا في القرن19على يدّ مجموعة من النقاد . فقد ولد هذا الاتجاه على يد مدام دوستال Destoél وبلغ تطورا منهجيا ملحوظا على يد هيبوليت تين Taine ـ A ـ H ثم على يدّ النقاد الماركسيين ، حيث ظهرت في فرنسا مدرستان نقديتان متميزتان تزعّم الأولى مدام دوستال وتين وهي تنظر إلى الأدب في علاقته بالمحيط الاجتماعي ، وتزعّم الثانية سانت بيف Sainte Beuve وهي تنظر إلى الأدب في علاقته بمنتجه.

I ـ أسس الاتجاه الاجتماعي في الدّراسات الأدبية

1. مدام دوستال والاتجاه الاجتماعي (1766.1817) : عادة ما يبدأ التأريخ لهذا الاتجاه بكتاب أصدرته عام 1800 بعنوان « الأدب في علاقته بالمؤسسات الاجتماعية » ، حيث أكّدت من خلاله على : « أنّنا لا نستطيع فهم الأثر الأدبي وتذوّقه تذوقا حقيقيا في معزل عن المعرفة بالظروف الاجتماعية التي أدت إلى إبداعه وظهوره» [2].

لقد اهتمت الناقدة بالبحث عن مدى تأثير العادات والقوانين في الأدب ومدى تأثير هذا الأخير فيها[3] ، ثم راحت تكشف عن ذلك من خلال أمثلة ساقتها لفهم هذه الظاهرة من ناحية اجتماعية.

2 ـ تين والاتجاه الاجتماعي (1828 .1893) : يظهر تفسيره الاجتماعي للأدب من خلال كتابه « تاريخ الأدب الإنجليزي »(1863) ، وقد شرح فيه الكاتب منهجه القائم على اعتبار أنّ الأدب حصيلة عوامل ثلاثة :

ـ الوسط Le Milieu : المقصود به كل ما يحيط بالأديب من ظروف اجتماعية وبيئية واقتصادية...

(1) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب ، دار الحداثة ، لبنان ، ط 1 ، 1986 . ص 16.
(2) إبراهيم محمود خليل ، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك ، دار المسيرة ، الأردن ، ط 1 ، 2003 . ص 67.
(3) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 166.

ـ الزمن أوالعصر le temp : « ويعني به روح العصر أو مكان العمل الأدبي من تاريخ التراث ، وربما يعني به ما عبّر عنه شاعر عربي قديم بقوله : لكل زمان دولة ورجال »(1) ، وبالتالي فالزمن هو هذا الامتداد التاريخي الذي يؤثر على تطور الأدب. وقد نظر إليه تين نظرة سكونية .

ـ العرق أو الجنس Race : إنّه تلك « الخصائص القومية والمقصود بها تأثير المناخ والتربة والحوادث الجسام والدوافع الغريزية والعناصر الوراثية والنزاعات الدفينة والعادات العدائية والملامح الجسدية »(2).

والملاحظ على منهج تين أنّه كان مقيّدا من ناحيتين : أوّلا من حيث النظرة السكونية للتاريخ الأدبي ، وثانيا من حيث جعل الكلاسيكية مثالا تقاس عليه الفنون ، كما أنّه أهمل أثر الجانب الفردي. وعلى الرغم مما قدمه إلا أن التطوّر الحقيقي في دراسة الأدب اجتماعيا كان مع ظهور الفلسفة الماركسية .

3 ـ الفلسفة الماركسية والاتجاه الاجتماعي : الماركسية نظرية في الاقتصاد السياسي وضعها (كارل ماركس Karl Marx) (1818 ـ 1883) بمشاركة (فردريك أنجلز F ـ Engels)(1820ـ 1905) في منتصف القرن 19 ، وقد اشتهرت بالشيوعية ، كما أسماها البعض بالتفسير المادي للتاريخ(3) ، أما عن نشأة هذه النظرية فقد كانت بتأثير النضال الخاص بطبقة العمال (البروليتاريا).

نظرت الماركسية إلى التاريخ نظرة حركية وقد قامت أساسا لتفسير حركة التاريخ والتحولات الاجتماعية ، في محاولة استنباط القوانين التي تتحكّم فيها ، فكان أن خلصت إلى قاعدتين أساسيتين تتحكمان في حركة التاريخ هما : الصراع الطبقي والماديّة الجدليّة.

1 ـ قاعدة الصراع الطبقي : فهناك طبقة أولى تسعى لإبطاء حركة التاريخ للحفاظ على مصالحها ، وهناك طبقة ثانية تسعى لإسراع الحركة والقضاء على النظام الطبقي. ودراسة مجمل التناقضات والتحوّلات التي تصاحب فترة ما تدفع لحركية التاريخ التي تسعى لها الماركسية.

2 ـ قاعدة المادية الجدلية : صنّفت الماركسية ضمن الاتّجاه الثاني المادي والتي ترى بأنّ المجتمع مشروط بوسائل إنتاجه ، مضيفة بذلك عاملا رابعا إلى ثالوث تين وهو وسائل الإنتاج التي تفرض بنيات المجتمع.

(1) المرجع نفسه . ص 82.
(2) المرجع نفسه . ص 81.
(3) ميجان الرويلي ، سعد البازغي ، دليل الناقد الأدبي المركز الثقافي المغرب ، ط 1 ، 2003 . ص 223.

إنّ المادية الجدلية تقوم على خلفية أساسها أنّ البناء الاقتصادي تحكمه مجموعة من العلاقات الاجتماعية ، وفوق هذا البناء نجد البناء الفوقي الذي تحكمه علاقات فكرية ، وأي تغيير في المبني التحتي يتبعه تغيّر في المبني الفوقي« فليس البناء العلوي أو الفوقي المكوّن من القانون والفنّ يتطوّر على نحو ذاتي بل إنّه مرتبط في تطوّره بالناحية التاريخية للمجتمع التي تمتدّ منحنياته على حسب تطوّر البناء الاقتصادي »(1). وفي ضوء هذه النظرة فقد أعاد الماركسيون النظر في أمرين : طبيعة الأدب وغايته(2).

بالنسبة لطبيعة الأدب« فالماركسية تؤمن بأوليّة المادة وأنّ هذا الوجود هو الذي يقرّر الشعور...إنّ الأساس الإبداعي لعمل الفنان يتلخّص في أنّ كلّ عمله انعكاس للعالم الذي يعيش فيه »(3).

أما عن غاية الأدب عندهم فهي وثيقة الصّلة بموقف المبدع من قضية الصراع الطبقي ، فالفنّ ليس خاصا بالمبدع وحده وإنّما له تأثيره على المجتمع ، إذ يعمل على تدعيم نظام ما أو الإطاحة به ، مما يحوّله إلى« سلاح يستغلّ في الصراع بين الطبقات ، ولا بدّ من ضرورة استخدامه »(4).

II ـ الأسس الفكرية والمعرفية لنظرية الانعكاس

1 ـ مفهوم الانعكاس : كان ظهور المصطلح في عام 1845م في كتابات كارل ماركس المتعلّقة بتحليل الصّلة بين الأدب والمجتمع على ضوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية(5). وبالتالي فمفهوم الانعكاس قد أخذ تحديده العلمي من خلال النظرية الماركسية ، ولاسيما بعد الدّراسة التي أقامها لينين حول تولستوي في مقالته « تولستوي مرآة الثورة الروسية « أين وظّف كلمة الانعكاس ، فتولستوي في نظر لينين« يترجم يعكس يعرّي ويعبّر عن الواقع الاجتماعي للمرحلة التي تمتدّ ما بين1861ــ 1905... »(6) ، ويرى لينين بأنّ التناقضات في وجهات نظر تولستوي ليست تناقضات في فكره الشخصي وحده « وإنّما هي انعكاس للظروف والتأثيرات الاجتماعية والتقاليد التاريخية المعقدة »(7).

(1) رجاء عيد ، فلسفة الالتزام بين النظرية والتطبيق ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د ط ، د ت . ص 131.
(2) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، نهضة مصر ، د ط ، 2004 . ص 28.
(3) رجاء عيد ، فلسفة الالتزام بين النظرية والتطبيق . ص 137.
(4) المرجع نفسه . ص 134.
(5) سمير حجازي معجم المصطلحات اللغوية والأدبية الحديثة ـ دار الراتب الجامعية ، لبنان ص 115.
(6) محمد ولد بوعلية ، النقد الغربي والنقد العربي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط1 ، 2002 . ص89.
(7) خالد أعرج ، في تأويل خطاب النقد الأدبي الاجتماعي ، دراسة في نقد النقد ، عبد المنعم ناشرون ، حلب ، ط1 ، 1999 . ص 112.

إنّ المتأمّل في هذا القول يرى أنّ مفهوم الانعكاس عنده يحمل بعدا إيديولوجيا كونه ربط الانعكاس بتصوير العلاقات المعبّرة عن صراعات المجتمع ، وارتباطها بالظروف التاريخية[1]. وظلّ مفهومه كذلك حتى ظهرت آراء لوسيان غولدمان التي اعتبرت العمل الأدبي تعبيرا عن الكاتب والجماعة والعصر.

لقد أدّت هذه النظرية إلى ظهور تفسيرات اجتماعية للأدب اتّخذت من الأحوال الاقتصادية والاجتماعية منطلقا لها ، مجاوزة بذلك التفسيرات النقدية التي سادت قبلها مثل فكرة الإلهام الشخصي ، وأنّ الأدب تعبير عن الرغبات المكبوتة وعن الأحلام واللاشعور.

2 . الأسس المعرفية لنظرية الانعكاس : خلافا للنظريات الأدبيّة التي سبقتها(المحاكاة والتعبير والخلق) فإنّ نظرية الانعكاس استندت في تفسيرها للأدب إلى الفلسفة المادية الجدلية ، ولكن دون أن نغفل أنّها تقوم كذلك على علم الاجتماع الأدبي أو Sociologie de la littérateur .

إنّ دراسة العمل الأدبي بوصفه ظاهرة اجتماعية هي دراسة لها فعاليتها في فهم النصّ الأدبي وكشف بعض الجوانب المتعلّقة بالحياة الاجتماعية ، مما يسهّل على الدارسين فهم الكثير من الأعمال الأدبية ، ومن جهة أخرى فإنّ هذه الدراسات ستفيد علماء الاجتماع في تأكيد نظرياتهم ، لقد أثّر علم الاجتماع الأدبي في الحركة الأدبية والنقدية بحيث ظهرت عدّة فروع له مثل : علم اجتماع النص ، وعلم اجتماع القراءة ، وعلم اجتماع الأجناس الأدبية ، وعلم اجتماع الرواية[2]. ضف إلى ذلك أنه قد ساهم في بعث مجموعة من الدّراسات التي تبحث عن الظاهرة الأدبية إبداعا وطبيعة ووظيفة وعن العوامل المؤثّرة في تطوّر الأدب ، وفي ظهور أنواع أدبية جديدة إثر التقدّم الصناعي والتكنولوجي وغيرها...[3].

فنظرية الانعكاس تقوم على علم الاجتماع وعلى الفلسفة المادية ، ولعلّ هذا ما جعلها تنتهج منهجا يقوم على الوصف والتأمّل والاستقراء ودراسة تاريخ الفنون ، كما حاولت تفسير الظاهرة الأدبية وتعليلها باعتبارها جزءا من الظاهرة الثقافية عامة دون إهمال خصوصياتها واستقلاليتها النسبية عن باقي فروع المعرفة[4].

3 . مستويات الانعكاس : لقد اتّخذ مفهوم الانعكاس في الدراسات النقدية

(1) سمير حجازي ، معجم المصطلحات . ص 115.
(2) المرجع نفسه . ص 180.
(3) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 164.
(4) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 85.

مستويات مختلفة أهمّها :

ـ المستوى الجدلي : يرتبط مفهوم الانعكاس في هذا النمط بمفهوم النموذج Modèl ويعتمد على الفلسفة الماركسية في تحليلاته الأدبية[1].

يرى أصحاب هذا الاتّجاه أنّ العلاقة بين الأدب والواقع علاقة جدلية ، ولتوضيح مفهوم الانعكاس فإنهم ربطوه بعلاقة النموذج بالواقع. بالنسبة لدلالة الواقع عند الباحثين فهي مختلفة ، إذ هناك تعدّد لا محدود لأشكال الواقع ، ففيشر مثلا حدّد مفهوم الواقع على أنّه « مجمل العلاقات بين الذات والموضوع »[2] وتميّز مفهومه ذاك بإدخاله رؤية الأديب في تحديد مفهوم الواقع.

أما بالنسبة لمفهوم النموذج فهو مجموع الصفات التي تشكّل جوهر الموضوع[3] ، كما قد يرتبط بمحاولة التثبّت من صحّة تصوّرات الكاتب تجاه واقعه والمجسّدة في أعماله الأدبية ، لأنّ المرجعية في تقييمها تكون بمقارنتها بالواقع الاجتماعي. فالكاتب يقوم بتصوير الواقع في أعماله محاولة منه لتجسيده نموذجيا عبر تجربته الذاتية مما يجعل مفهوم الانعكاس ينحصر فيما هو جوهري في المجتمع ؛ والجوهري يعني تصوير الإنسان في لحظة من لحظات تطوّره ونزوعه نحو مزيد من التحرّر وتأسيس واقع أفضل[4].

ـ المستوى الآلي: « يرتكز على مفهوم النموذج عبر مماثلته للشخصية الاجتماعية أو الموضوع المعكوس »[5] ، أي أنّ هناك تماثلا للنموذج مع الرؤية الإيديولوجية للكاتب. فالآلية هي تصوير مباشر للعالم الواقعي وخاصة فيما يتعلق بتصوير الشخصيات النموذجية في الآثار الفنية أين « يتماثل النموذج مع رؤية الكاتب الإيديولوجية لتغيب العلاقة الموضوعية بين الاجتماعي والأدبي ، ولاسيما حين تشرع رؤية الناقد بتشكيل هذه العلاقة عبر مفهوم الانعكاس »[6].

وعليه فإنّ آلية الانعكاس لا تكون إلا من خلال مفهوم النموذج الذي يتوافق مع بنية عملية الأصل بتعبير « ريديكر » الذي يقول : « والطابع المميّز لانعكاس العملية المنمذج هو أنّ ما له أهمية هنا ليس التوافق الحسّي المادي أو

(1) خالد أعرج ، في تأويل خطاب النص الأدبي الاجتماعي . ص 110.
(2) المرجع نفسه . ص 116، 117.
(3) المرجع نفسه . ص 118.
(4) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 92.
(5) خالد أعرج ، في تأويل خطاب النقد الأدبي الاجتماعي . ص 114.
(6) المرجع نفسه . ص 115.

التشابه...ولكن ما له أهمية هنا كون بنية عملية الأصل تتكرّر في النموذج »[1].

ـ المستوى الإنشائي : إنّ مفهوم الانعكاس في هذا المستوى يتجلّى في عكس حياة فئة أو طبقة معينة من المجتمع بعيدا عن رصد علاقات الطبقات فيما بينها والتي يغذّيها الصراع الاجتماعي ، إنّ المجتمع من منظور الفلسفة الماركسية هو وحدة غير متجانسة تسوده ثقافتان ، ثقافة الطبقة المسيطرة وثقافة الطبقة المسيطر عليها. والأدب طبعا خاضع لتلك الطبقية ، هذا ما جعل الانعكاس على مستويات. ورأينا كيف أنه حدث هناك اختلاف حول مفهوم الشخصية الروائية ومدى مطابقتها للشخصية الاجتماعية مما جعلها تفقد قدرتها على الإقناع باعتبارها تمثّل أبطالا تنافس أبطال الواقع الحقيقي ولذلك نزعت الرواية الجديدة إلى إهمال هذا الاتفاق وتهميش الشخصية الحيّة في العالم الروائي[2].

III ـ بعض مبادئها الفنية والأدبية :

إنّ الرؤية الاجتماعية للأدب تفرض تغيّرا في المفاهيم الأدبية.

ـ الإبداع الأدبي : إنّ الإبداع الأدبي« فعالية اجتماعية وإن بدا فرديا للوهلة الأولى »[3] ، ويمكننا أن نلمس ذلك على مستوى الشكل والمضمون معا. فاللغة في هذا النوع من الطرح تعتبر« ظاهرة اجتماعية » ؛ ومعنى ذلك « أنّ الأديب أيا كان عضوا في جماعة هذه الجماعة..هي خالقة اللغة والمفردات والرموز لذلك لا يمكن أن يتأتّى له أن يبني شكلا أدبيا(لغويا)خارجا عن جماعته »[4] ، وفي إطار ذلك يرى وليك ووارين أنّ « الأدب مؤسّسة اجتماعية أداته اللغة ، وهي من خلق المجتمع »[5] ، هذا شكلا أما مضمونا فإنّ العمل الأدبي لا يخرج عن حدود تأثّر الأديب بالمحيط الاجتماعي الذي ينتمي إليه ويستقي منه أفكاره (مصدره الأول).

ترى نظرية الانعكاس أنّ ظهور الأنواع الأدبية أو انقراضها« مرتبط بحاجات جمالية اجتماعية ، أي أنّ النظام الاجتماعي هو الذي يفرض ظهور أنواع أدبية ملائمة لدرجة تطوره »[6] ، وبالتالي فكل فترة تاريخية واجتماعية مميّزة تخلق إنتاجا أدبيا خاصا بها.

---

(1) المرجع نفسه . ص 112، 113.
(2) خالد أعرج ، في تأويل خطاب النقد الأدبي الاجتماعي . ص 119، 120.
(3) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 90.
(4) المرجع نفسه . ص 91.
(5) رونيه وليك ، أوستن وارين ، نظرية الأدب ، تر : محي الدّين صبحي ، المؤسسة العربية للدّراسات والنشر ، د ط ، 1987 .ص 97.
(6) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 102.

أما عن تطوّر أو تراجع حركة الإبداع الأدبي فهي ناتجة عن تطوّر حركة الصراع أو تراجعها داخل المجتمع. يرى أعلام النظرية أنّ للأدب قوانينه الخاصة والعامة باعتباره جزءا من الثقافة العامة ، وهذا معناه أنّ الأعمال الأدبية الحديثة أكثر تطوّرا من الأعمال القديمة لكنها ليست أكثر فنية منها[1].

ـ الأديب : « الأديب عضو في جماعة ، إنّه كائن طبقي أو مجموعة من العلاقات الاجتماعية »[2] ، يستمدّ مادته من مصدر اجتماعي يتأثّر به ويؤثّر فيه ، ولا يعني ذلك أن يكون مرآة تعكس حياة المجتمع وإنّما يعكس فهمه هو على هذا المجتمع. وعليه فالمضمون الاجتماعي للعمل الأدبي وإن بدا مستمدّا من واقع الحياة الاجتماعية إلا أنّه في حقيقته مستمدّ من الموقف الفكري للأديب من هذه الحياة[3] ، وكل ذلك يقود لحقيقة مفادها أنّ الأديب حين يكتب « فلكي يعبر عن علاقته بالواقع أو بالمجتمع أو بالعالم ، إنه يشعر أنّ هناك خللا ما في تلك العلاقة ، وهذا ما يدفعه إلى تجسيد رؤية جديدة للمجتمع أو العالم متوسلا شكلا من أشكال الأدب »[4]، فالأديب وفقا لنظرية الانعكاس« مجرّد ممثّل لما تسمّيه بالعقل الجمعي..وصدى لهذا المجتمع وأنّه القائم بالتعبير عما يشعر به الناس وعمّا يعتمل في أحاسيسهم »[5].

ـ القارئ : لقد ظلّت صورة القارئ في مختلف النظريات الأدبية التي سبقت نظرية الانعكاس صورة سلبية باعتباره متلقّيا ساذجا للعمل الأدبي على خلاف نظرية الانعكاس التي تشرك القارئ في عملية الإبداع.

إنّ الأديب وهو يكتب ينبغي أن يراعي متلقي العمل الأدبي مما له صداه البالغ في كيفية تشكيله وصياغته. فقد يهدف إلى الارتقاء بذوق الجمهور ووعيهم الفنّي فيكتب بأسلوب مثير يدفعهم إلى مزيد من القراءة الواعية[6] أو« قد ينجح الكتاب في خلق جمهور خاص بهم »[7].

ـ وظيفة الأدب : لقد حدّدت نظرية الانعكاس الإبداع الأدبي على أنّه فعالية

(1) المرجع نفسه . ص 123، 124.
(2) المرجع نفسه . ص 89.
(3) داود غطاشة ، حسين راضي ، قضايا النقد العربي قديمها وحديثها ، الدّار العالمية الدّولية ودار الثقافة ، ط1 ، 2000 . ص 98.
(4) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 90.
(5) رجاء عيد ، فلسفة الالتزام بين النظرية والتطبيق . ص 90.
(6) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 93 ـ 94.
(7) رونيه وليك ، أوستين وارين ، نظرية الأدب . ص 105.

اجتماعية « وهذا يعني أنّ الأدب تجربة إنسانية »[1] ، يسعى من خلالها الأديب كي ينقل تلك التجربة للقارئ ويجعله يشاركه إياها ، والمغزى من ذلك هو « خلق نوع من الاتّساق الفكري والشعوري في الموقف الجماعي بطريقة غير مباشرة أي من خلال الرمز والإيماء »[2]. وبالتالي فوظيفة الأدب هي « وظيفة اجتماعية أو فائدة لا يمكن أن تكون فردية صرفا »[3].

ـ الالتزام : أي التزام الأديب بمعالجة قضايا المجتمع. فالأديب لا يكتب لذاته وإنّما يكتب للجماعة بحيث يكون أدبه متكافلا مع مصالحها. وهنا يصبح مفهوم الالتزام حسب د. شكري عزيز الماضي خارجا عن إطاره الفنّي إذ يرى أنّ أساس وعي الكاتب هو تصويره لما هو جوهري بعيدا عن السّطحية« فكلّما انغرس الأديب بتصوير العلاقات الاجتماعية من الداخل حقّق لأدبه ارتقاء وسموّا فنّيا وبالمقابل فإنّ تصويره للهامش والسّطحي أمر يهبط بالأدب والفن »[4].

من البديهي أن يعبّر الكاتب عن واقعه الاجتماعي ، ولكن ليس من البديهي أن ينقل تفاصيل الواقع بحذافيره نقلا كاملا ، وإذا سلّمنا بذلك فهذا يوجب عليه أن يكون مطّلعا على أوضاع اجتماعية خاصّة.

لقد تناول ماركس المسألة إذ يرى أنّ الانعكاس ليس آليّا ، لأنّه قد يتأخّر وعي الإنسان لحاضره نتيجة للأفكار والتقاليد الموروثة[5] ، كما يقرّر بأنّه ليس هناك تلازم بين النهضة الفنيّة ومستوى الحياة الاجتماعية في العصر يقول : « أما فيما يخصّ الفنّ فمن المعلوم أنّ عصورا معيّنة ليس لازدهار الفنّ فيها علاقة ما بالنمو العام للمجتمع ، وبالتالي لا علاقة لهذا الازدهار بالأساس المادي »[6]. فماركس يضعنا أمام حقيقة جوهرية مفادها أنّ تقدّم المجتمع يفرض تأخّرا في الأشكال الفنية ، ضف إلى ذلك أنّ تواجد عدّة أدباء ينتمون إلى مجتمع وطبقة وعصر واحد لا يعني بالضرورة تماثلا في إنتاجهم الأدبي ، ولكن دون أن ننفي وجود بعض السّمات المشتركة ، وهذا الكلام مفاده أنّ « العلاقة بين الأدب والمجتمع ليست آلية ولا متوازية ، بل متداخلة ومعقّدة »[7].

(1) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 94.
(2) المرجع نفسه . ص 94.
(3) رونيه وليك ، أوستين وارين ، نظرية الأدب . ص 97.
(4) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 88.
(5) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث . ص 316.
(6) المرجع نفسه . ص 317.
(7) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 92.

وبالإجمال نقول إنّه على الكاتب أن يحسن وعيه وإدراكه لواقعه ، وأن يستجيب لدواعي الجماعة ، دون القول بوجوب تضمين الأعمال الأدبية كلّ قضايا المجتمع والعمل على تفسيرها ، والقول بخلاف ذلك تجاوز لحدود المتعة والجمال ، لأنّ للأديب حرّيته في اختيار موضوعاته وحرّيته في طريقة المعالجة الفنيّة.

خاتمة

وفي الختام وبناء على ما سبق من عرض تلك العناصر يمكن أن نستخلص جملة نتائج نحصرها في النقاط التالية :

ـ إنّ الأدب الاجتماعي ما هو إلا نوع من أنواع الأدب يعمل على محاكاة الواقع الاجتماعي غير أنّه من غير الممكن أن يحلّ محلّ علم الاجتماع لأنّ للأدب بنيته وشكله الخاصين به .

ـ لم تقتصر الفلسفة الماركسية على دراسة الصّلات بين الأدب والمجتمع ، وإنّما تجاوزت ذلك إلى تحديد ما ينبغي أن تكون عليه هذه الصّلات في مجتمع خال من مظاهر الصراع. وبالتالي فدراسة المضامين الاجتماعية في عمل أدبيّ ما لا تقوم على ما هي عليه في الواقع ، وإنما فيما ينبغي أن تكون عليه.

ـ إنّ الاعتناء بالمحتوى الاجتماعي للعمل الأدبي أدّى إلى اتخاذه وسيلة لدعم الدراسات المتعلّقة بالمجتمع.

ـ لقد أهملت نظرية الانعكاس في تحليلاتها الأدبية الجوانب الجمالية للعمل الأدبي ، وفي هذا تغاضٍ عن أهمّ سمة فيه وهي عنصر الجمال.

ـ تميّزت النظرية بمفاهيم خاصة عن نشأة الأدب وطبيعته ووظيفته ، وما يميّزها عن النظريات الأخرى أنّها لم تهتم بجانب واحد من جوانب الإبداع وإنّما تناولتها في كلّيتها.

ـ إذا كانت نظرية الانعكاس ترى أنّ الأدب انعكاس للواقع الاجتماعي والظروف التاريخية ، فإنّ هناك إقرارا بأولوية الواقع و السيرورة التاريخية على الانعكاس ، لأنّ الواقع والتاريخ موجودان قبل أن نملك معرفتهما.

ـ لقد تطورت الأبحاث في مجال الاتجاه الاجتماعي أي في مجال نظرية الانعكاس ليظهر النقد السوسيولوجي(Socio_Critisism) الذي يقوم على علم الاجتماع ، كما ظهرت البنيوية التكوينية(Genetic structuralisme) .

ـ إنّ تحليل العمل الأدبي وتفسيره من منظور نظرية الانعكاس بقدر ما يخدم نظرية الأدب في جوانب معيّنة كفهم بعض طروحات النص بقدر ما يكون

حاجزا في إنارة كل طروحاته وفي هذا تأكيد على أنّ دراسة العمل الأدبي من غير الممكن أن تعزى فيها الريادة إلى جانب واحد فقط.

قائمة المراجع :

1ـ إبراهيم محمود خليل ، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك ، دار المسيرة ، الأردن ، ط12003.

2 ـ خالد أعرج ، في تأويل خطاب النقد الأدبي الاجتماعي ، دراسة في نقد النقد ، عبد المنعم ناشرون ، حلب ، ط1 ، 1999.

3 ـ داود غطاشة ، حسين راضي ، قضايا النقد العربي قديمها وحديثها ، الدار العلمية الدولية ودار الثقافة ، دبي ، ط1 ، 2000.

4 ـ رجاء عيد ، فلسفة الالتزام بين النظرية والتطبيق ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د ط ، د ت.

5 ـ رنيه وليك ، أوستين وارين ، نظرية الأدب ، تر : محي الدّين صبحي ، المؤسّسة العربية للدّراسات والنشر ، دب ، دط ، 1987.

6 ـ سمير حجازي ، معجم المصطلحات اللغوية والأدبية الحديثة ، دار راتب الجامعية ، لبنان ، دط ، دت.

7 ـ شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب ، دار الحداثة ، لبنان ، ط1 ، 1986.

8 ـ محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، نهضة مصر ، دط ، 2004.

9 ـ محمد ولد بوعليبة ، النقد الغربي والنقد العربي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط1 ، 2002.

10ـ ميجان الرويلي ، سعد البازغي ، دليل الناقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط3 ، 2002.